الباب الأول
فى المقسم به

الفصل الأول

الذات العليّة - الرسول - الملائكة - القرآن

(١)

الذات العليّة

ذكر الله الذات العلية فى قسمه القرآنى تارة بلفظ الله، وتارة بلفظ الرب. أما القسم بالله فجاء فى سورة يوسف على لسان إخوته حين لاحظوا أن أباهم يعقوب يبكى باستمرار على فقد أخيهم يوسف حتى أبيضّت عيناه من الحزن عليه، فقالوا له: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾[1] أى مشفيًا على الهلاك. وأقسم إبراهيم الخليل بلفظ الله حين توعّد - فى سورة الأنبياء - قومه عبدة الأصنام بأنه سينزل بها كيدًا قائلاً: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾[2] وخرجوا عن

---

(١) سورة يوسف الآية: ٨٥.

(٢) سورة الأنبياء - الآية: ٥٧.

البلدة فى عيد لهم فحطمها جميعًا بفأس له إلا كبيرًا لها، ووضع الفأس فى رقبته وسألوه: من فعل هذا بآلهتنا؟ فقال فعله كبيرهم، والفأس لا تزال معلقة فى رقبته.

وأقسم الله فى القرآن مراراً باسمه: الرب، وهو مشتق من الربوبية، ويدل باشتقاقه على أنه مربّى الإنسان الذى ينميه ويرقى به يوماً بعد يوم، ويخاطب الله به الرسول فى سورة النساء قائلاً: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[1] وتنازعوا فيه من أمور الدين والدنيا. ويخاطب الرسول فى سورة الحجر قائلاً: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] أى أنه سيسأل كفار قريش يوم القيامة عما عملوا فى دنياهم واقترفوا من ذنوب وآثام. ومما أقسم الله فيه بلفظ الرب - آمرًا رسوله - عذابُ الكفار فى سورة يونس قائلاً: ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أى العذاب ﴿ قُلْ إِى ﴾ بمعنى نعم ﴿ وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[3] وبالمثل مجئ القيامة فى سورة سبأ بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[4]

---

(١) سورة النساء - الآية: ٦٥.

(٢) سورة الحجر - الآيتان: ٩٢ - ٩٣.

(٣) سورة يونس - الآية: ٥٣.

(٤) سورة سبأ - الآية: ٣.

ومجئ البعث وحصوله فى سورة التغابن بقوله جلَّ شأنه: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾[1].

ويقول الله فى سورة الذاريات: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[2] من البعث والحساب والجزاء، ثم يقسم برب السماء والأرض قائلاً: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[3] بالكلام. ويقسم الله فى سورة المعارج قائلاً: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾[4]. ولا مع ﴿ أُقْسِمُ ﴾ ليست للنفى وإنما هى لتأكيد القسم. والمراد بالمشارق والمغارب مطلع الشمس والقمر ومغرباهما، وهما آيتان من آيات الله إذ ينيران الدنيا نهاراً وليلاً، فيبصر الإنسان الدنيا من حوله، وينطلق فيها باحثاً عن معاشه نهاراً، ويأوى ليلاً إلى بيته وفراشه لراحته بعد تعب النهار واستجمامه.

---

(١) سورة التغابن – الآية: ٧.

(٢) سورة الذاريات – الآية: ٢٢.

(٣) سورة الذاريات – الآية: ٢٣.

(٤) سورة المعارج – الآية: ٤٠.

الرسول

أقسم الله بحياة الرسول ﷺ فى أثناء حديثه عن نزول العذاب بقوم لوط فى سورة الحجر [الآية – ٧٢ –] قائلا له: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ تكريما لا يمائله تكريم. ﴿ سَكْرَتِهِمْ ﴾: غواية وضلالة. ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾: يتحيرون ويتخبطون.

(٣)

الملائكة

أ - فى سورة الصافات.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾[1].

هذه الصفات للملائكة، وعطف الصفتين: الثانية والثالثة بالفاء يدل على أنها جميعاً صفات لموصوف واحد هو الملائكة. وجُمعت جمع مؤنث سالم للدلالة على أنها جمع لطوائف من الملائكة ومفردٍ الصافات الصافّة، وهى الطائفة المصطفّ بعضها مع بعض صفا واحداً أو صفوفاً متراصّة. والصف: جَعْل الناس أو الأشياء على خط مستقيم واحد على نحو ما يحدث فى أداء المسلمين الصلاة جماعة بالمساجد. وهذا الصف للملائكة يمكن أن يكون حقيقة وأنها مصفوفة فى العالم العلوى لعبادة الله وتقديسه، والقيام منه فى مقام الطائفة ومنزلة الخدمة. وقال بعض المفسرين: الصافات أى الصافات أجنحتها فى الفضاء منتظرة لأوامر الله كى تقوم على تدبيرها. وقيل الملائكة ثلاثة أصناف: صنف هائمون فى جلال الله، وصنف

---

(١) سورة الصافات - الآيات: ١، ٢، ٣.

مسخرون لربهم، وصنف يقوم على تدبير الكون، وجميعهم صافون فى خدمته، ليس لهم شغل ولا عمل سوى ما أُمروا به. والآية تدل بوضوح على تشريف الله للملائكة إذ أقسم بهم. وكان الرسول ﷺ يوصى بأن لا تكون فى صفوف الصلاة فُرْجة حتى يتلاصق المصلون ويتضامّون ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾. الزجر: الحثُّ، يقال زجرت الشخص عن عمل سيّئ فانزجر أى نهيتُه فانتهى، وقيل الزجر هو الصَّرف عن شىء تخويفاً. والزاجرات فى الآية الملائكة الذين يسوقون السحاب المحمَّل بالمطر إلى أرض فى حاجة إليه.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ هم الملائكة الذين يتلون كلام الله الموحَى به إلى الرسل، وقيل بل المراد بالذكر فى الآية ما تتلوه الملائكة من التقديس والتسبيح لله وتمجيده وتحميده. وقال بعض المفسرين إن الموجودات ثلاثة أقسام: قسم مؤثر ولا يتأثر بشىء، وهو الله واجب الوجود، وقسم لا يؤثر، وهو سائر الأجسام، وقسم وسط بين القسمين السابقين، وهو الملائكة، وهو قابل للتأثير من الله، سبحانه، ومؤثر فى عالم الأجسام.

ب - فى سورة المرسلات [١ — ٦].

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

قيل هذه الأوصاف صفات لطوائف من الملائكة، وقيل بل هى صفات لرياح أو لسحاب أو لأنبياء، والقول الأول أصحها واختاره الزمخشرى صاحب الكشاف.

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ جمع مرسلة ﴿ عُرْفًا ﴾، أى متتابعة، يرسلها الله رحمة للبشر، أو يرسلها لرسله بأوامر شرائعه ونواهيها، أو يرسلها لهم بعذاب الكفار.

﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴾ تشبيه لسرعة نزول الملائكة بالوحى بعصف الرياح إذ تمضى به إلى أرض الرسل سريعة كالريح العاصف لتنفيذ ما أُمروا به.

﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾ قيل الملائكة تنشر أجنحتها عند طيرانها فى السماء، وأولى من ذلك أن يكون المراد بالنشر نشر الشرائع التى يحملونها إلى الرسل.

﴿ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴾ أى أنهم يحملون الشرائع الفارقة بين الهدى والضلال، والمميزة بين الإيمان و الكفر. ويلى المفعول المطلق كل الأفعال السابقة. عرفا: عصفا، نشرا: فرقاً لتأكيدها.

﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ أى وحيا يحملونه إلى الرسل، وعبَّر الله بالإلقاء لنزول الملائكة بالوحى من العالم العلوى إلى عالم الرسل فى الأرض ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ عذراً أى عند المسلمين بمن أسلموا

بعد كفرهم أو تابوا بعد ذنوبهم، ونذراً: أو إنذار الكفار العاصين بعذاب الله وعقابه.

جـ — فى سورة النازعات [١ — ٥].

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾.

هذه الأوصاف مثل سابقتها أوصاف للملائكة تصف أفعالهم استجابة لأوامر الله الذى يطيعونه وينفذون أوامره ومشيئته كما يريد. وقد أقسم الله بطوائفهم وما ينهضون به من أعمال له، وهم من أشرف مخلوقاته.

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾ الملائكة التى تنزع أرواح بنى آدم من أجسادهم، وصيغت صفتهم بصيغة التأنيث، لأن المراد جماعاتهم أو طوائفهم و﴿ غَرْقًا ﴾ أى نزعاً مبالغة فيه، إذ يستأصلون الأرواح ولا يبقون فى الجسم منها باقية. وقيل ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾: النجوم وهو قول بعيد عن سياق الصفات بعد النازعات، وأبعد منه قول من قال: إنهم رماة السهام فى الغزو.

﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ ﴾: الملائكة المسرعون بتنفيذ أوامر الله، وقيل هم المنشطون للمؤمنين كى يخرجوا للجهاد، وقيل هم الملائكة الذين ينشطون أرواح المؤمنين لتخرج برفق.

﴿ وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحًا ﴾ : السبح المرور السريع فى لماء والهواء، والملائكة تسبح بأوامر الله وتمر بها سريعاً مرور الطير فى الهواء.

﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقًا ﴾ معطوفة على السابحات بالفاء للدلالة على ترتب السبق على السبح، فهى تسرع بما تحمله من أوامر الله فى أجواء السماء وآفاق الأرض.

﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا ﴾ أى المنفذات لأوامر الله المكلفة بها على أكمل وجه. وتدل هذه الصفات للملائكة على أنه وكلهم بأمور الدنيا يدبرونها ما شاء الله من تدبيرهم، ولذلك كان إيمان المسلم بالملائكة أحد أركان الإسلام فلا يتم إيمان المسلم بدونها.

د ـ ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ سورة الحاقة [٣٨ — ٣٩].

أقسم الله فى هاتين الآيتين بالوجود جميعه، وهو قسم عظيم إذ كل ما فى الوجود إما أن يكون مبصراً تشاهده الأعين وإما أن يكون غير مبصَر لا يشاهده البصر، والله يقسم بكل أشياء الوجود الدالة على عظيم قدرته وروعة صنعه وإبداعه من المشاهدات مثل السماء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والأرض والجبال والبحار، ومن المغيبات مثل الملائكة والأرواح والجنّ وكل أمور الآخرة والجنة والجحيم.

٤

القرآن

أقسم الله – عز شأنه وسلطانه – بالقرآن مراراً فى كتابه العزيز الموحى به إلى رسوله تارة باسمه القرآن الذى وضعه له تعظيماً لشأنه، وتارة باسم "الكتاب" أى الكتاب المنزَّل على رسوله لسعادة البشرية فى الدنيا والآخرة. وفيما يلى آيات هذا القسم العظيم:

أ – ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [١ – ٢] قيل يس اسم للسورة، وقيل بل اسم لمحمد ﷺ، ويسمى المصريون كثيرا من أبنائهم باسم ياسين تبركاً. والكلمة مكونة من الحروف المقطعة التى ذكرت فى أوائل بعض السور، واختلف المفسرون فى دلالاتها، وأولى الآراء فيها رأى الزمخشرى فى أنها تدل على أن القرآن المعجز ببلاغته وبيانه مكون من نفس الحروف الهجائية التى يتألف منها كلامهم. و ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ إما بمعنى الحاكم الذى يحكم بينكم كالعليم بمعنى العالم، وإما الحكيم بمعنى المُحْكَم نظمه المتقن، وإما بمعنى المملوء حكمة وعظة.

ب – ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [الآية – ١] ص: من

الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور تحدّياً لبلغاء العرب أن يأتوا بمثل القرآن. ويتسع الذكر فى القرآن دالاً على معان كثيرة، فهو يذكّر الناس بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وما يجب عليهم لربهم من توحيده وعبادته، ويذكرهم بالمبدأ والمعاد وبالخير ليعملوه وبالشر ليتجنبوه، ويذكرهم بثواب الله ونعيمه وبعقابه وشدة بطشه، ويذكرهم بنفوسهم وصفاتها وبأعدائهم ومكايدهم بسور من القرآن. وهو ذكر لذوى العقول والألباب.

جـ - ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [الآية - ١]. ق من الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور مثل ص. وأقسم الله بالقرآن فى الآيات المذكورة تنويها لقدره وتعظيماً لشأنه. ﴿ ٱلْمَجِيدِ ﴾ أى الموصوف بالمجد والشرف الكامل لاشتماله على أسمى المعانى لسعادة البشرية.

د - ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[1] حٰم: من الحروف المقطعة لتحدّى العرب أن يأتوا بمثل بلاغة القرآن. وقيل إن حٰم حرفان مقتطعان من اسمى الله. الحنّان المنّان أى الرحيم الكريم وهو بعيد. أقسم الله فى أول سورة الزخرف بالكتاب، وهو بدلالة اسمه: القرآن مقروء ومحفوظ فى صدور المسلمين إلى يوم الدين تتلوه ألسنة الأمة. وهو مكتوب بتسمية الله له باسم الكتاب كما سمّاه فى القرآن إشارة

---

(١) سورة الزخرف - الدخان [١، ٢].

إلى أنـه أُنزل ليكتب وأن المسلمين مأمورون بكتابته، وفى ذلك إشارة واضحة إلى أنه سيكتب فى المصاحف، وكان ينزل على الرسول لفظاً غـير مكـتوب، وكـان يكتبه -بمجرد نزوله- كتّاب الوحى. ووصفه الله بأنـه - مبين - أى واضح لمن أُنزل عليهم إذ هو بلغتهم، وأيضاً المبين لطرق الهدى والخير من طرق الضلالة والشر.

وهـذه الآيـة الكـريمة فـى أول سـورة الزخرف تكررت فى أول سورة الدخان التالية لها.

الفصل الثانى

الظواهر الكونية

(١)

السماء والنجوم

أ - ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ سورة الذاريات (٧).

الْحُبُك: الطرائق جمع حباك مثل كتاب وكتب، أو جمع حبيكة مثل طريقة وطرق. وهى مشتقة من الحَبْك وهو إتقان الخلق والصنع. وطرائق السماء: طرائق نجومها بما فيها المجرَّة، وكلها تدل بوضوح على قدرة الله فى إحكام خلقه.

ب - ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ سورة البروج (١).

السماء المحيطة بالأرض بها الأفلاك العليا، وبها النجوم التى تزيِّنها وكأنها مصابيح متألقة. ويقول الله فى وصفها: ﴿ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ وهى مجاميع ثابتة من نجوم صغيرة. وتسامت الشمس كل مجموعة منها شهراً فى السنة الشمسية. وسمى الفلكيون كل مجموعة منها برجاً على سبيل الاستعارة. وبروج

الشمس طوال العام أو منازلها التى تسامتها اثنا عشر برجاً أو منزلاً منها ثلاثة للشتاء، هى الجَدْى والدلو والحوت، وثلاثة للربيع هى الحمل والثور والجوزاء، وثلاثة للصيف وهى السرطان والأسد والسنبلة، وثلاثة للخريف، وهى الميزان والعقرب والقوس. وجميعها تدل على قدرة الله العجيبة.

جـ - ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ سورة الطارق — (١، ٢، ٣).

الطَّارق: القادم ليلاً، والله يقسم بالسماء المصورة لقدرته. وفسَّر الله الطارق بالنجم وعظَّمه بقوله: وما أدراك ما الطارق. وأل فى النجم للاستغراق، فيشمل جميع النجوم، وقيل: بل أل للعهد، فهو نجم معين، وهو زحل لشدة ضوئه. وأصل معنى الثاقب الذى يحدث ثقباً، وكأنما هذا النجم الطارق ليلاً يخترق الظلام محدثاً فيه بضوئه ما يشبه ثقباً من النور لهداية السائرين ليلاً.

د - ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ سورة النجم (١).

أقسم الله - عزَّ سلطانه - بالنجم الدال بسطوعه ليلاً على قدرته العظيمة. واللام فيه للاستغراق أو للجنس، وقيل: بل هى للعهد، والمراد، إذ يسميها العرب باسم النجم، سبعة نجوم ولا يكاد السابع فيها يُرَى. وقيل: بل هى اثنا عشر نجماً صغيراً، ويروى أن الرسول ﷺ كان يراها لقوة بصره.

وهوىَ النجم: غروبه أو انحداره للغروب، وقيل: بل المراد بالنجم فى سورته الشهاب، وهويُّه: سقوطه، والأرجح فيه ما سبق. وكان بعض العرب يعبد النجوم، فقال الله لهم إن النجم يهوى، ويغرب، فلا يصلح أن يكون إلهاً يعبدونه ويقدّسونه. ويقول الله فى قصة إبراهيم الخليل بسورة الأنعام: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا ﴾ أى نجماً ﴿ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾ (١).

هـ - ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ سورة التكوير (١٥، ١٦).

لا الداخلة على فعل القسم ليست للنفى إنما هى زائدة لتأكيد الوقوع. والخُنَّس الجوارى. الكنَّس قيل هى بقر الوحش وقيل الظباء، والقولان ضعيفان، والصحيح أنها النجوم تخنس نهاراً أى تختفى، وتجرى ليلاً فتضيىء للناس طرقهم ومسالكهم، ثم تكنس أى تغرب مثل البقر الوحشى فى دخول كناسه أى مبيته، وهو تصوير بديع، إذ تختفى نهاراً لغلبة ضياء الشمس عليها، وتجرى ليلاً هادية الناس فى الظلام الموحش ثم تنحدر إلى الغروب كما تنحدر البقرة الوحشية آوية إلى كِناسها بعيداً عن الأبصار.

---

(١) سورة الأنعام – الآية ٧٦.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ سورة الواقعة (٧٥).

لا النافية فى أول هذه الصيغة زائدة لتأكيد القسم، وقسمُ الله بمواقع النجوم دليل واضح على قُدرته العظيمة التى جعلت السائرين برًّا وبحراً فى ظلمات الليل يهتدون بها إلى مقاصدهم. وذهب بعض المفسرين إلى أن اسراد بالنجوم فى الصيغة الآيات القرآنية، وينسب ذلك خطأ - فى رأينا - إلى ابن عباس وأنه قال إن القرآن نزل ليلة القدر جملةً من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل على الرسول مفرقا فى السنين.

٢

الشمس والقمر والليل والنهار

أ ـ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ سورة الشمس [١ – ٦]

أقسم الله فى الآيات بمخلوقاته الكونية العظيمة من الشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض.

و ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾: الكوكب الذى يعم الأرض بالدفء والضوء نهارا. ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ أى ضياؤها حين ترتفع عن أفق مشرقها، وتبسط ضوءها على وجه الأرض. ويقول بعض المفسرين إنها بضوئها تشير إلى شمس الروح وضوئها المنتشر فى البدن الساطع على نفس الإنسان. ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أى تبعها – بعد غروبها – بنوره ليلاً، وفى ذلك إشارة علمية واضحة إلى أن نور القمر مستمد من ضوء الشمس، وهى معجزة علمية للقرآن، وفى سورة يونس »٥« : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ والضياء أعلى فى الرتبة من النور. ويضيئ القمر الكون فى أكثر ليالى الشهر وكأنما

جعله الله للناس فى الليل عوضاً عن الشمس فى نشر نوره على الأرض لاهتدائهم به برًّا وبحراً. ويقول بعض المفسرين إن الشمس تمثل الحقيقة الإلهية الكبرى، ويشير القمر إلى الحقيقة الإنسانية.

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ أى جَلَّى أضواء الشمس بعد الضحى وأُسنِدت تجلية الشمس إلى النهار لوقوعها فيه، وهو إسناد مجازى كقول العرب: نهار عليّ صائم، والصائم عليّ لا النهار، ويجعله علماء البلاغة العربية مجازاً عقلياً.

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ أى الشمس يغطى ضوءها بظلامه والتغطية مسببة عن تكوير الأرض ودورتها اليومية تجاه الشمس. فتغطية الليل لضوء الشمس مثل تجلية النهار مجاز عقلى، إذ تنشأ التغطية فعلاً عن الدورة الكونية اليومية للأرض التى تحول بيننا وبين ضوء الشمس.

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ أى رفعها فوق الأرض على غاية العظم، ونهاية العلوّ، مما يشهد - كما تشهد الآيات السابقة - بقدرة الله الذى بناها وعظيم شأنه الربانى.

﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ أى بسطها للناس كى ينتفعوا بها معيشة وسُكْنَى.

والله - جل شأنه - فى هذه الآيات يصور كمال قدرته الإلهية

إذ أقسم بالشمس أعظم آياته الكونية، وتلاها بأربع صفات أولها ما لها من ضوء تبسطه وتنشره فى العالم، وثانيها تبعية القمر لها فى نوره، وثالثها تجليها عند ارتفاع النهار، ورابعها غروبها عند بدء الظلام وطوال الليل. وأقسم الله بالسماء العظيمة التى تسير الشمس فيها وبالأرض التى ترسل فيها أضواءها.

ب - ﴿ وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ سورة المدثر [٣٢ - ٣٤].

أقسم الله فى السورة السابقة بالنيِّرين: الشمس والقمر لأنهما من أعظم آياته فى الخلق. وهنا فى سورة المدثر أقسم بالقمر وحده المسخر لإرادته وتدبيره فى انتفاع الناس به ليلاً، ومعروف أنه يبدو كهلال فى أوائل الشهر، ثم يظل يتزايد فى كل ليلة تالية، حتى يتكامل نوره فى الليلة الرابعة عشرة، فيصير أضوأ ما يكون، ويظل يتناقص بعدها حتى يعود بعد أربع عشرة ليلة إلى حاله الأول.

وأقسم الله بالليل، إذ أدبر وأخذ الظلام فيه يتفلّت من الآفاق فى وقت السحر، وأخذ الناس يستيقظون للعمل فى اليوم الجديد.

﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ الصبح أول النهار، والإسفار كشف الغطاء، وإسفار الصبح إشراق لونه ووجهه، وقيل الصبح البياض قبل طلوع الشمس.

وجمع الله فى القسم بين القمر والليل فى وقت السحر وبدء النهار فى الصباح لما تجمع أوقاتهما من خيوط النور التى تتخلل الظلام.

جـ - ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ سورة الفجر [١ - ٥].

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ اسم لوقت انحسار الظلام عن وجه الأرض أمام تسلّل الضوء من المشرق، وفيه يبدأ الناس فى الانتشار، وتبدأ معهم سائر الحيوانات والطير سعيا للأرزاق. «وأل» فى الفجر للجنس وهو المتبادر، وقيل بل للعهد، وهو فجر الليالى العشر التالية، وقيل بل هو يوم عرفة التاسع من ذى الحجة لقول الرسول ﷺ، الحج عرفة، وقيل بل هو فجر يوم نَحْر الأضاحى فى العاشر من ذى الحجة وهو يوم الحج الأكبر.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هى ليالى الأيام العشرة من ذى الحجة التى تُقام فيها مناسك الحج من الإحرام ودخول مكة وطواف القدوم، وفى ثامنها ليلة التروية أو يوم التروية ويتلوه يوم عرفه ثم يوم النحر كما أسلفنا. وقيل إن المراد بالليالى العشر العشرُ فى آخر شهر رمضان لأن بها ليلة القدر التى قال الله فيها إنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

والراجح أنها ليالى ذى الحجة التى تقام فيها مناسك الحج.

﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ الشفع: الثانى لغيره، والوتر المفرد الوحيد. وقيل الشفع يوم النحر لأنه عاشر ذى الحجة. وفى الشفع والوتر أقوال كثيرة، منها أنها نفس الأيام العشرة إذ منها شفع ووتر، مثل أربع وثلاث.

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ من السُّرَى أى يسرى فيه السارى لاشتداد ظلامه وأسند السرى إلى الليل، وإنما يسرى فيه الشخص أو الناس، وهو مجاز عقلى واضح مثل قول العرب: نهار على صائم يريدون أن عليًا صائم لأن النهار لا يصوم، ومثله ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾. لأن الليل لا يسرى إنما يسرى الشخص أو الأشخاص فيه.

﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ أى عقل، والاستفهام تقريرى، والله يقول أليس فى تلك الأقسام من الفجر والليالى العشر والشفع والوتر والليل ما يعظم العبادة فيها جميعاً لله مدبر الكون ومنسّقه ومنظمه.

د - ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ سورة التكوير [١٧ — ١٨].

بعد أن أقسم الله بالنجوم فى الآيتين السابقتين بسورة التكوير أقسم بالليل الذى تجرى فيه. وعسعس تأتى فى اللغة لإقبال الظلام وإدباره، ويمكن حمله فى الآية على هذا المعنى أو ذاك، وحمله على إدبار الظلام أولى للقسم بالصبح بعده. واستعار الله للنور من

الصبح حين بدء انشقاق الكون عنه تنفس الإنسان، وكأنما كان يشعر بثقل على صدره لانتظاره انبثاق نور الصباح، وفرَّج الله عنه، وانبثق، وكأنما استحال تنفساً له.

هـ - ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ سورة الانشقاق [١٦، ١٧، ١٨].

﴿ فَلَآ ﴾ لا النافية زائدة لتأكيد القسم. والشفق: الحمرة التى تُرَى فى أفق السماء عَقب غروب الشمس، ويليها بياض وبانتهائهما يدخل وقت العشاء. ويقال إن الشفق يقيه من ضياء الشمس حين تحجب عن عيون الناس.

﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أى حمل وضم من الأشياء التى كانت تشاهد نهاراً من الناس والحيوانات والطير. إذ تأوى جميعاً إلى مساكنها فى الليل للراحة والاستجمام، ويقال بل المراد ما حمل الليل من النجوم التى أقسم الله بها فى القرآن مراراً، وهذا أنسب لذكر القمر بعدها. وقيل بل المراد: بما ضم من النسَّاك المستغفرين بالأسحار.

﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ اتساق القمر: اكتمال نوره فى ليلته الرابعة عشرة، والثلاثة: الشفق والليل والقمر جميعاً من آيات الله الكونية الدالة على كمال قدرته وأن الكون مسخر لمشيئته.

و - ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾.
سورة الليل [١-٢] .

هذه الدنيا أو هذا العالم ليل ونهار، والله يشير بذلك إلى قدرته العظمى فيما أخذ به الدنيا والعالم من نظام الليل ونظام النهار وهو فى الدنيا للمعاش والسعى فى الدنيا طلباً للأرزاق. ويقابله نظام الليل فى الدنيا للراحة من مشقة النهار والعودة بعد الاستجمام إلى مزاولة العمل.

وفعل ﴿ يَغۡشَىٰ ﴾ فى السورة ليس معه مفعول به بينما فى سورة الشمس متصل به ضمير مفعول يعود على الشمس، فالليل هناك تغشى ظلمته الشمس، أما هنا فظلمته عامة وتغشى الدنيا وكل ما فيها حسب الدورة الشمسية، وهى قسمة ربانية ليأوى كل كائن إلى مأواه ليلاً. والليل عند الجغرافيين يعتد من مغرب الشمس إلى طلوعها، أما عند الفقهاء فمن مغرب الشمس إلى صلاة الفجر.

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ بسطوع الشمس فيه وظهورها دفعة واحدة، ولذلك كان الفعل فى فاصلته ماضياً، بخلاف الليل فالفعل فى فاصلته مضارع لأن ظلمته تحدث وتنتهى تدريجاً أى شيئاً فشيئا، ففى أوله الشفق وفى آخره السَّحَر، إذ تنحسر ظلمته فيه، كما بدأت، تدريجاً.

ز - ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾

سورة الضحى [١، ٢].

الضحى: وقت ارتفاع الشمس فى صدر النهار، ويمتد إلى ما قبيل الزوال وكان فيه لقاء موسى لسحرة مصر فى عهد أحد الفراعين، وأشار الله إلى ذلك فى قوله: ﴿ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ فكان للضحى ذلك الشرف. وهو من آيات الله الكبرى نهاراً، ولذلك أقسم الله به تعظيماً له. وصلاة الضحى سُنَّة وهى ركعتان. وقسمه به إيماء بوقته فى أوائل النهار إلى أن رسالة الرسول عليه السلام لا تزال فى بواكيرها وأنها ستعم العالم كما تعمّه أضواء الشمس.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أى هدأ وسكن، وليس المراد هدوء زمانه وسكونه وإنما المراد هدوء الناس فيه وسكونهم فهو مجاز عقلى من باب «نهار على صائم». وعبر الله - جلَّ شأنه - بسكون الظلمة عن سكون أهله وسكون أصواتهم فيه. وترمى الآية إلى صلاة الرسول فيه وتلاوته للقرآن.

ح - ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴾ أقسم الله بالعصر الذى يمتد من آخر وقت الظهر إلى أول وقت المغرب، وفيه يصبح ظل الجسم مثلى قدره قبل وقته، وفيه اصفرار الشمس الذى يؤذن بانتهاء النهار. وفيه يستعد الناس لانقطاع أعمالهم اليومية وقيل إن القسم بالعصر على حذف

مضاف وأنه قسم بصلاة العصر المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾[1] وسميت وسطى لتوسطها بين صلاة الظهر فى النهار وصلاة المغرب فى ابتداء الليل. وقيل إن المراد بالعصر فى الآية عصر نبوة رسول الله الممتد من زمنه مع أمته إلى آخر الدنيا، إذ هو عصر خير الأنبياء والمرسلين وعصر خير الكتب الإلهية وعصر أمة الرسول آخر الأمم إلى آخر الزمان وانقراضه أو انتهائه.

(١) سورة البقرة — الآية ٢٣٨.

(٣)

الرياح - السحب الممطرة

أ - ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ سورة الذاريات [١ — ٣].

أقسم الله فى هذه الآيات بصفات حُذِفتْ موصوفاتها، وعطفها بالفاء يدل على أنها صفات لموصوف واحد كما هو الغالب فى مثلها. والموصوف هو الرياح الدالة على قدرة الله، إذ بدونها كانت تهلك الدينا ولا يكون فيها زرع ولا ضَرْع. ونُقل عن على بن أبى طالب وغيره أن هذه الصفات لموصوفات متعددة: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ﴾ الرياح، و﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ السحب. و﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ السفن فى البحار، و﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ الملائكة. وتذهب كثرة المفسرين إلى أنها جميعها صفات للرياح، وهو الأرجح لعطفها بالفاء كما ذكرنا. وعن عبد الله بن عمر أن الرياح ثمان: أربع منها رحمة وأربع عذاب، أما رياح الرحمة فالناشرات والمبشرات والذاريات والمرسلات، وأما رياح العذاب فالعاصفات والقاصفات والصَّرصَر والعقيم.

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ﴾: الرياح التى تذرو التراب وتنشره، وأولى من ذلك أن يكون المراد بالذرو ذرو السحب ونشرها متفرقة ومجتمعة و ﴿ ذَرْوًا ﴾ تأكيد.

﴿ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴾ أى ثقلا، والمراد حمل الرياح للأمطار المتراكمة فيها وإسقاطها بالأرض المجدبة والزرع الذى يحتاج إليها. وعن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة ماء إلا أنبت بها فى الأرض عُشْبة وفى البحر لؤلؤة. وفى المطر حياة الأرض وكأنه روحها، ويقول الله - جلَّ شأنه - : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾[1].

﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴾ هى الرياح تجرى بالسحب فى يسر ولين، إذ ليست محملة بمطر يثقلها، ويمكن أن يكون المراد جرى الرياح بالسحب المحملة بالمطر لتدفعه إلى الأرض.

﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ هى السحب التى تنزل ما تحمل من الأمطار فى المواضع المختلفة. وكل ما نسب إلى الرياح من عمل فى الصفات السابقة إنما هو من عمل الله، ونُسب إليها مجازا.

---

(١) فاطر - ٩ -.

الفصل الثالث

النفس - القلم - الخيل - الأماكن المقدسة

(١)

النفس

أ - ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ سورة القيامة (٢).

لا مع ﴿ أُقۡسِمُ ﴾ ليست نافية، إنما هى زائدة لتأكيد القسم، وذكر الله - عزّ شأنه - فى القرآن نفسين: نفسًا أمارة بالسوء فى سورة يوسف على لسان امرأة العزيز، إذ اعترفت بذنبها قائلة ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[1]. ونفسا مطمئنة التى خاطبها الله بقوله: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾[2].

والله - فى الآية - لا يقسم بالنفس الكافرة أو العاصية الآمرة بالسوء، وإنما يقسم بالنفس المؤمنة المطمئنة ﴿ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ التى

---

(١) يوسف - ٥٣ -

(٢) الفجر ٢٧ - ٣٠.

لا تزال تشعر بالملامة لتقصيرها فى العبادات والطاعات حرصا منها على الزيادة فيها وفى أعمال الخير والبر، وما تزال تؤديها حتى يتحقق لها مقام الاطمئنان والفوز بما وعد الله به النفوس المطمئنة من الانتظام فى عباده المؤمنين المتقين.

ب - ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ سورة الشمس [٧،٨].

نفس فكرة كل نفس وما عملت كما فى مثل قوله - جَلَّ شأنه - ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾[1]. وتسوية النفس: خلقها وإبداعها. وقيل: ﴿ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ حذف مضاف أى وربّ ﴿ مَا سَوَّىٰهَا ﴾ . وقيل التسوية تمت منذ إكمال الخلقة، وتستمر فى أطوار الحياة وخاصة منذ النشأة وأيام الصبا؛ ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ لم يرد عن العرب كلام يحمل هذا الفعل ومصدره: الإلهام، ويغلب أن تكون هذه المادة من ابتكارات القرآن. والإلهام: إلقاء الشىء فى النفس والرَّوْع بدون تعليم أو تجربة أو تفكير، سواء منه ما كان عن استدلال عقلى أو عن غير استدلال. وقدم الله الفجور على التقوى فى قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ مراعاة للفواصل. وألهم الله النفس الفجور والتقوى أى عرَّفها بحقائقهما حتى تختار ما شاءت منهما. وقال بعض العلماء السابقين من المفسرين إن الإلهام

---

(١) الانفطار - الآية ٥.

لا يكون إلا فى الخير، ومعنى إلهام النفس فجورها لتجتنبه، وإلهامها بتقواها لتعلمه وتعمل به، وهو بذلك فى جانب الفجور إلهام وإعلام، إذ الله لا يأمر بالفجور، وفى جانب التقوى عمل.

٢

القلم

﴿ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ سورة القلم [١].

القلم آلة الكتاب، وقال بعض المفسرين المراد بالقلم قلم اللوح المحفوظ فى العالم العلوى وما يجرى به من الآجال والأعمال والأرزاق والأولى أنه جنس القلم الذى يكتب به. ولعل هذا هو الصواب لملائمته لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أى الكتبة - أقسم الله تعالى به لشرفه، إذ يكتب به القرآن والكتب السماوية والعلوم والمعارف وكل مصالح الناس فى المعاش. ويسطرون من السطر وهو الصف فى الكتابة والضمير فى يسطرون يعود إلى الكتبة مطلقا، وإن فُسّر القلم بأنه قلم اللوح المحفوظ كان الضمير عائدا إلى الملائكة الذين يكتبون فيه ما قدّر على الناس.

الخيل

﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ سورة العاديات [١ — ٥].

اختلف الصحابة فى أى جماعة تراد بهذه الصفات هل هى جماعة الخيل الغازية فى الصباح أو هى جماعة إبل الحجاج التى تعدو وتسرع فى سيرها من عرفات إلى المزدلفة ثم إلى منى؟ والراجح أنها خيل الغزو والإغارة لا الإبل المرحلة فى الحج لأن صوت الضبح خاص بالخيل إذ تَضْبح فى عدوها ضَبْحا، والضبح صوت أنفاسها من أجوافها لشدة عدوها، وهو غير صهيلها وغير الحَمْحَمة.

﴿ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴾ الإيراء إخراج النار والقدح الضرب، فإن الخيل فى عدوها تضرب بحوافرها ما فى طريقها من حجارة فتخرج منها نار، وتلك خاصة لحوافر الخيل لصلابتها بخلاف أخفاف الإبل إذ فيها لين واسترخاء. واستعير القدح الخاص بالنار لضرب الحوافر، وهو كناية عن شدة السرعة فى العدو.

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ أى خيل الغزاة، إذ كانوا يغيرون فى الصباح قبل طلوع الشمس لمباغتة القبيلة بالنهب والأسر والقتل، ولذلك كانوا يهتفون عند خوف الغزو: يا صباحاه أى تنبهوا فإن عدوا اتجه إليكم ليغزوكم على حين غفلة.

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ الضمير فى ﴿ به ﴾ إما عائد على الصبح، والباء ظرفية أى فى الصبح، وإما عائد على العدو، والباء سببية. والنَّقع: الغبار المثار الذى تثيره الخيل فى المصاولة والكر والفر.

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ أى فتوسطت الخيل جمع المغزوِّين، ونالت منهم ما أرادت. وعدل الله إلى الفعل الماضى فى الصيغتين الأخيرتين: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ للدلالة على أنهما لا يدخلان فى القسم، فالله أقسم بالعاديات الموريات المغيرات، ثم قال: إنها توسطت جمعا وأثارت فيه الغبار الكثيف.

٤

الأماكن المقدسة

أ - ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ سورة الطور [١ — ٦].

أقسم الله - جلّ شأنه - بالطور، وهو جبل سينا المبارك الذى خاطب الله فيه موسى عليه السلام، وأنزل عليه فيه ألواح التوراة. ويقال إنه اسم سريانى، وأولى من ذلك أن يكون اسماً مصرياً قديما.

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ هو التوراة لاقترانه بالطور الذى نزلت فيه على موسى ألواح التوراة أو بعبارة أدق الأسفار الأربعة الأولى المدونة فى صدر التوراة وهى سفر التكوين وسفر الخروج وسفر العدد وسفر التثنية، وفيها يقول الله عن موسى بسورة الأعراف [١٥٤]: إنه: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾. ﴿مَّسْطُورٍ﴾ سمّى الله التوراة كتاباً مسطوراً لأن موسى كتبها وعنه أخذها اليهود، و﴿مَّسْطُورٍ﴾ أى مكتوب سطورا، أى صفوفا متراصة من الكلمات، وفى أواخرها: سبقت

رحمتى غضبى، من أتانى بشهادة أن لا إله إلا الله أدخلته الجنة.

﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ الرّق: صحيفة أو صحف رقيقة من جلد، إذ كان موسى واليهود يكتبون التوراة فى رقائق جلدية من الصحف، وكانوا يلصقونها بعضها ببعض. ﴿ مَّنشُورٍ ﴾: مبسوط، وقيل مفتوح لا ختم عليه. وتنكير الكتاب والرق للتفخيم أو للدلالة على أن الناس لا يعرفونه. ويجوز أن يكون الرق المنشور هو نفس الألواح مجازا.

﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ الكعبة - وهو معمور بالعُمَّار من الحجاج والطائفين والمصلين، قال الله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾[1]. وكما نزلت أسفار التوراة بجبل الطور نزل كثير من القرآن للرسول حول الكعبة بمكة فى جبل حراء وغيره.

وقال بعض المفسرين: البيت المعمور فى السماء واسمه الضراح. والأولى ما قلناه من أنه الكعبة لاتفاقها مع ذكر الله للتوراة.

﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ هو السماء، سمَّاها الله بهذا الاسم فى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾[2] سماها بذلك لأنه رفعها عن الأرض رفعاً حقيقيًا، كما يُرْفع سقف البيت.

﴿ وَٱلْبَحْرِ ﴾ قيل هو البحر المحيط بالكرة الأرضية، وجميع

---

(١) سورة التوبة - الآية ١٨.

(٢) الأنبياء - ٣٢ -

البحار فيها فروع منهس. ويمكن أن يكون المراد البحر الأحمر ومايسير فيه من السفن المحملة ببضائع للناس ومنافعهم.

﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ ومعناها المملوء. قيل المملوء ماء، وهو الظاهر، وقيل المملوء نارًا عند انتهاء الدنيا، والرأى الأول أظهر وأوضح.

ب - ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ سورة البلد [١ — ٣].

﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ أى أقسم، ولا النافية لا تدل على النفى إذ هى زائدة لتأكيد القسم، وقيل بل ليست زائدة إذ أصلها امتناع عن القسم تحرجا ثم يكون القسم. وشاع هذا الاستعمال عند العرب، وأصبحت لا كأنها مزيدة واستعمله القرآن. والقول بزيادتها للتأكيد أولى وأوضح.

والإشارة بـ ﴿بِهَٰذَا﴾ مع بيان اسم الإشارة بالبلد إعزازا له، والله يقسم به لمكانته المقدسه، إذ جعله حرمًا آمنا وجعله حرم خليله إبراهيم ودار جد الرسول: إسماعيل بن إبراهيم، وبنيا فيه الكعبة، وأصبحت البيت الحرام قبلة للناس شرقاً وغرباً، وجعل الحج إليه كفّارة لذنوب المسلمين.

﴿وَأَنتَ﴾ خطاب من الله - عزَّ وجلَّ - لرسوله تكريما له لا يماثله تكريم.

﴿حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أى حال فيه ساكن له. وقد كان ذا مكانة

عند الله، وزادت مكانته شرفاً وتجلةً بحلول الرسول فيه، إذ أصبح له حرمة كبيرة. وفى ذلك تعريض لأهل مكة بجهلهم لمكانة الرسول عند ربه. إذ يريدون أن يخرجوه منها مع ما أتاح لها من مزيد الشرف ومزيد القداسة. وهو إشعار ربانى عظيم بحرمة مكة ومنزلة رسوله عنده منزلة لم يحظ بها رسول.

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ يمكن أن يكون القسم بكل والد وولده، وكأنه يشمل كل من خلقهم الله إعزازاً لهم. وقيل بل المراد آدم وذريته، ويلتقى هذا الرأى مع الرأى السابق، وقيل: بل المراد إبراهيم عليه السلام الذى اتخذ مكة دار ابنه اسماعيل وزوجته هاجر، ودعا ربه لمكة قائلاً: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[1] وفى هذا القسم تعريض بمشركى مكة من ذرية إبراهيم بأنهم انحرفوا عن طريقه من التوحيد وهو يدعوهم إلى عبادة الله.

جـ - ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ سورة التين [١ — ٣].

أقسم الله بالتين؛ وهو ثمرة معروفة تؤكل فاكهة طيبة، وأقسم معه بالزيتون الذى يعصر، وعصيره يستخدم فى الطعام والإضاءة، ويقول كثرة من المفسرين إن الله أقسم بهما لكثرة منافعهما لعباده،

---

(١) سورة البقرة — الآية ١٢٦.

وأولى من ذلك قول ابن قَيِّم الجوزية إن المراد بالتين والزيتون أرض بيت المقدس فإنها أكثر البقاع تيناً وزيتونا وبذلك يتسق سياق الآيات فى السورة، فقد أقسم الله بأرض بيت المقدس الذى ولد فيها عيسى، وبطور سيناء الذى كلم الله فيها موسى وببلد الرسول: مكة جامعا: الأمكنة المقدسة التى أرسل الله منها رسله الثلاثة: موسى وعيسى ومحمد بكتبهم الإلهية المنزلة عليهم: التوراة والانجيل والقرآن الكريم.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ طور: الجبل الذى كلم الله موسى عليه، وسينين: سيناء، وهى شبه جزيرة شرقى مصر بينها وبين فلسطين. وسينين لغة فى سيناء بصيغة جمع المذكر السالم، وهى اسم مفرد وليست جمعا، وتنطق بحركات الإعراب المقدرة مثل الجمع.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ المراد بالبلد الأمين مكة، ووصفه بأنه أمين أى مأمون، وفى القرآن: ﴿مَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[1] لحرمتها عند العرب قبل الإسلام وبعده. والقسم بأماكن الرسل الثلاثة العظام: عيسى وموسى ومحمد للتعظيم.

---

(١) آل عمران — ٩٧ —.